

«المستقبل» تفتح ملف الزجل اللبناني مع رواده (٤)

وبدنا نموت وكلاهما موتي الله يخلي صوتك وصوتي

توبي قماش وإنت توبك ريش إنت وأنا بصواتنا منعيش

موسى زغيب

يعتبر الشعر الزجلي الشعر الأكثر شعبية في لبنان. أو على الأقل هذه مكانته المفترضة، وهكذا كانت حاله منذ الثلاثينات مع الشعراء المؤسسين مثل شحرور الوادي ورشيد نخله ومع الجيل الثاني والثالث مثل أنيس المغالبي وزغلول الدامور وزين شعيب ومحمد المصطفى وجان رعد وموسى زغيب وأسد سعيد وغيرهم.. في هذا الملف الذي يهدف إلى تكريم شعر الزجل والإطلاع على واقعه اليوم كما على ماضيه نحاور أبرز شعراء الزجل الذين تجاوز معظمهم السبعين سنًا، وبعضهم بلغ التسعين.. نحاول أن نطل على فهم هؤلاء الشعراء أنفسهم لشعر الزجل وكيفية كتابته وموقعه وأهميته وما إذا كان الزجل قادرًا بالفعل على أن يكون صوت الناس أم أنه محكوم بالبقاء في الإطار الفولكلوري المناسباتي المحض..

بعد زغلول الدامور وزين شعيب ومحمد المصطفى نحاور في هذه الحلقة الشاعر موسى زغيب وهو كذلك من أبرز شعراء الجيل الثاني الذين تركوا بصماتهم الواضحة سواء على المنبر الزجلي من خلال المبادرات التي أحيها والجوقات التي أنشأها أو اشتراك فيها أو من خلال الشعر المكتوب الذي يحتل عند زغيب مكانة موازية لذلك المرتجل.

سامر أبو هوش

● كيف تعرف لي الزجل اللبناني؟

- الزجل اللبناني هو أب جميع متفرعات الشعر اللبناني المحكي، هو أب الأغنية اللبنانية، وكل التصنيفات الأخرى. فحين بدأت الأغنية اللبنانية مع وديع الصافي كانت زجلاً، وشعر الرحابنة كذلك هو أب الزجل.

● ماذا عن تاريخ الزجل؟

- لم يوجد مخطوطة بين أيدينا أقدم من مخطوطة المطران القلاعي الذي بدأ الزجل بالسريانية، وأزخ بالزجل لفترة من تاريخ لبنان، ويعتبر ما كتبه وبقية تاريخية اليوم. فالبدائية كانت مع السريانية، ثم أصبح خليطاً من الفصحى العربية والسريانية، وصار يوصف إلى أن وصل إلى زمن رشيد نخله، أمير الزجل في فترة من الفترات، وصاحب النشيد الوطني، وصاحب الشعر الصافي والنقي الذي طلع من المنابر.. ثم أيضاً شحرور الوادي صاحب السبق في تنظيم الشعر الزجلي والشاعر الكبير أيضاً. نحن لدينا شعراء منابر وشعراء قلم، سعيد عقل وميشال طراد، وأسعد السبعيني وأسعد سابيا هؤلاء شعراء قلم والفرق بيننا وبينهم أننا «يمزق» أشياء كثيرة.

فلتانة

● ما المقصود بذلك؟

- شاعر المنبر عليه أن يعني أربع ساعات في كل حفلة، وأن يرتجل، فلا بد أن نمرّ أشياء فلتانة، بينما شاعر القلم لديه الفرصة لكي يصفي شعره، إنما يحتاج شاعر المنبر إلى مؤهلات كثيرة، أولها أن يكون شاعراً، ثم أن تكون لديه سرعة البديهة، وأن تكون خبرته معقولة، ثم أن يكون وجهه مقبولاً.. وأخيراً أن يكون لديه نوع من السيطرة على الجمهور.

● هذه المواصفات تجعل من الزجل فناً أدائياً؟

- الزجل فن أدائي طبعاً، لكنه يمتلك الشعرية أيضاً، وينبغي أن يتوافر لدى الشاعر الحس الشعبي أيضاً. ينبغي أن تعرف كم يحتمل جمهورك من الغزل والمدح والتعاب والمجاء.. أي أن تتحول مع الناس لكي تستمر في حلفك...

● على الرغم من تاريخ الزجل العريق فهناك شبه إجماع بين الشعراء الذين حاورتهم حتى الآن على أن فترة ازدهار الزجل كانت من الستينات وحتى بداية الحرب في ١٩٧٥ وهذه فترة قصيرة نسبياً بالنسبة إلى فن عريق كهذا؟

- المشكلة أن الزجل لم يكن مدونةً، ولا كان يجد الرعاية الكافية قبل إنشاء المنبر الزجلي. لكنه كان حاضراً بين شرائح الشعب بصورة واسعة جداً. وقد وصل الزجل اللبناني إلى قمة أمجاده بين الخمسينات والستينات، تصور كنا نحكي حفلة بحضرة ٣٠ أو ٤٠ أماً.. ثم جاؤوا وطبعوا بلغة جديدة، أن الشعر اللبناني شيم والزجل شيء آخر.. وروّجوا لهذا الموضوع.. وتبين لي بعد الإطلاع أن الشعر اللبناني كله زجل..

● لكن الشعر المحكي أدخل نوعاً من الحداثة، حتى الشكلية، التي لم يعرفها الزجل؟

- لا حداثة ولا من يحزنون.. فبدلاً من أن تكتب «راح الحبيب يزور محبوبه القديم» في سطر واحد متصل، تكتب:

«راح الحبيب
يزور
محبوبه القديم»

هذا صار برأيهم شعراً لبنانياً ولم يعد زجلاً.. اشتغلوا على هذه المسألة فترة ثم توقفت هذه الطريقة لأن الشعراء أخذوا فقد الإيقاعات والأوزان لا يعود له معنى.. على الأقل ينبغي أن يكون إيقاعياً، فنزل قباني في تجديده الشعري مثلاً ظل محافظاً على الأوزان والقوافي وإن تحزرت من بعض قيودها..

نزاع

● يستشرف من كلامك أن هناك نزاعاً بين الزجل والشعر المحكي؟ ليس هناك أي نزاع لأن الشعر المحكي هو الشعر الزجلي، وهو يأخذ أوزانه، وقد قلت لهم ابتكروا أوزاناً جديدة وقبولوا أنه شعر محكي...

● ألم يكتب شعراء المحكمة بطريقة جديدة؟ كل شعراء المحكمة كتبوا الزجل.. طراد كتب الزجل وسعيد عقل والسبعيني وسابيا.. أتحداهم إذا ببجيبوا قصيدة لميشال طراد غير مؤونة ومقناة ولا يمكننا نحن أن نغنيها على المنبر..

● هل تتقاطع أوزان الزجل مع الشعر الفصيح؟

- القصيدة الفصحى تتخذ قافية واحدة عند نهاية كل بيت. أما نحن فنأخذ قافية في النصف وأخرى في نهاية البيت... هذه التركيبة الملزمة وجددها بعضهم صعبة ومتطلبه ففككوا هذه الطريقة لكي يشتغلوا على راحتهم.. ليست ضد العمل الذي يمتلك الجمال، لكن هذه الطريقة لا تقيد، وهم يعتبرون أن ذلك تحتك قصيدة كبيرة وتكون ملزماً بالقوافي والأوزان تضطر إلى تمرير أشياء فائضة.. وفي مثل هذه الحالات أفضل كتابة القصيدة القصيرة.. المهم أن طريقتهم لم تمش بدليل أن كتبهم لا تتابع.. أنا نشرت كتاباً زجلياً بعثت معه ٧٠٠ نسخة في الطبعة الأولى فقط.. أفضل شاعر منهم ببيع ٤٠٠ أو ٥٠٠ نسخة.. فما قاموا به ليس تطوراً ولا تغييراً.. ومع ذلك فهم لديهم مسك على شعراء المنابر لأن الآخرين نقلوا كل ما يقولونه على المنبر ونشروه في كتبهم.. لكنني شخصياً استدرتكم هذه المسألة وعمدت إلى الاختزال وحذفت ما لا يناسب النشر..

● كيف تعرّفت على شعر الزجل؟

- أنا من بلد فيها ٤٠ شاعراً هي حراجل. كان جدّي لأمي شاعراً مهماً وأبي وأخوالي يقولون الشعر.. وقد خرجت حراجل الكثير من الشعراء المهتمين وكان لدينا شاعر اسمه طابوس ديب كان محط الأمل بعد شحرور الوادي لكنه توفي باكراً في السابعة والعشرين.. بدأت بغناء الزجل باكراً وفي سن السادسة عشرة تراست أول جوقة وكانت باسم «باز الجبل» وكان معي شعراء لا زالوا يقولون الشعر.. بعد ذلك وغيثت مع الشاعر حنا موسى، ثم مع طابوس المحلاوي في «المنتخب الفني» ثم غنيت مع زغلول الدامور سنة وقت لقاء مع خليل روكز في جبيل وغيثت معه حتى وفاته فألفت جوقة «خليل روكز، تخليداً لاسمه وكانت هذه الجوقة التي أنجزت المباريات الكبرى في لبنان.. ثم ألفت جوقة «القلعة» التي اشترك فيها ٢٥ شاعراً وآلان نحاول أن نساعد الجيل الجديد المتقّف.

● تمارس الزجل منذ عقود... ما الذي يجعل شاعر الزجل يستمر بالغناء بربايك؟

- أغني منذ خمسين سنة.. كل يوم أجلس أربع أو خمس ساعات وأكتب.. تحتاج أن يعطيك الله الصبر والقناعة لكي تكتب وتنتج بشكل جيد.. ولكي يحضرنك الناس طوال هذه المدة لا بد أني أقدم أشياء جديدة باستمرار.. هناك شعراء غنوا زمينهم وحين شاخوا قليلاً صاروا خارج الزمن.. أهم شيئ أن يتمكن الشاعر من مواكبة الزمن ومن الانصاف بحاضره.. أنا كنت أخذ ٥٠ ليرة على الحفلة، أما اليوم فأجرى ٢٥٠٠ دولار.

● ما الذي تعنيه بمواكبة الزمن وكيف؟

- في الخمسينات مثلاً كنا نغني لأناس أميين في القرى والأرياف. لكن الزمن تطور وزادت نسبة المتعلمين والمثقفين، لم يكن في السابق إذاعة أو تلفزيون.. كان الزجل سيد الساحة وكان الناس يتقبلون كل ما يقدم لهم.. دخلنا في الزمن الآخر. اليوم لا تؤاخذني شعراء الزجل الكبار غير مثقفين إلا القلة القليلة منهم.. لا تجد عند الواحد منهم مكتبة مثلاً. وليس المهم وجود مكتبة أصلاً، لكن المواظبة على قراءة الكتب.. ينبغي أن يحافظ الشاعر على خزانه الداخلي لكي يتحدّى الزمن.. حين بدأت بالكتابة كنت أقول مثلاً «يا رايحة ع العين تا تملّي الابريق»، هذا النوع من الشعر لم يعد ملائماً اليوم، واليوم صرنا نغني لبنات الجامعات، والمرأة عنصر مهم في حفلاتنا لأنها تستطيع أن تجلب الناس إلى الحفلات ولذلك نركز عليها كثيراً.. على سبيل التطوير أيضاً قامت بإدخال الآلات الموسيقية من دف ودريكة وعود وأورغ وكورال من الفتيات.. أنا الوحيد الذي



● موسى زغيب



(جورج فرح)

برأس جوقة.. بدلاً من أن تكون هناك جوقة واحدة تضم كبار الشعراء وهذا من شأنه أن يقوي الزجل، فتجد شاعر زجل مهما حضر معه عدداً من الشعراء الضعاف.. وهكذا بدأ شعراء الزجل يتفرطون وإذا كان ينبغي أن يكون هناك رسالة فلا ينبغي أن تكون الأنا هي الغالبة.

● هناك من يقول إن الزجل يعالج القضايا السياسية والاجتماعية المهمة لكننا لم نسمع عن شاعر زجل طورد أو لوحق مثلاً..

- هموم الوطن شين والسياسة والتحرز شين آخر.. والسلطة تعرف جيداً أنها إذا اعتقلت شاعر زجل بسبب قصيدة فإن ذلك ليس في مصلحتها.. لكننا نحكي عن كل خلل نراه...

● ماذا عن القضايا الأخرى العربية؟ هل تجد أنه لكي يستمر الزجل في الحضور عليه التطرق إلى هذه القضايا التي تمم في النهاية شرائع واسعة من الناس؟

- أتحذّر عن نفسي.. أول كتاب شعر لي كان عن المقاومة الفلسطينية وجاء في العام ١٩٦٨ وأسميته «٢٠ سنة ثورة شعب» وقد جويتها وقتها في منطقتي الحضارة والديمقراطيات ومع ذلك تجد الأمور نفسها تحدث اليوم... شعرت أنني كشاعر ينبغي أن يكون لي موقف في قضية عادلة..

الراهن

● هل تتابع الأحداث الراهنة. ١١ أيلول، الانتفاضة، العراق..؟

- أتابعها بوجع.. الأشياء الكبرى يمكننا أن ننظر إليها تحت الشعراء نظرة خاصة لأننا ندرس التاريخ ونعرف أن العواصف تهب وتخلع الأشياء لكنني أقول أنه حتى لو انقلع البيت من جذوره فإن الأولاد سيكبرون ويعمرونه من جديد.. أتأسف كثيراً حين أقرأ عن اجتياحات الإسكندر والتتار وأنا سرنا في عصر الضلالة والديمقراطيات ومع ذلك تجد الأمور نفسها تحدث اليوم...
● تلحن أن شاعر الزجل يستطيع أن يحمل هموم أبعد من الجغرافيا الضيقة؟

- إذا لم يحمل الشاعر همّ آخر طفل حافي القدمين في الهند كما يحمل هم ابنه فليس بشاعر.. والشاعر الذي لا يحب جميع شعوب الأرض لا تصدق أنه شاعر.. بالأيسر كنت أكتب قصيدة لمناسبة وكان الكفار في قصص إلى جوارى فصار «بترغل» قليلاً حتى أحضروا له حبوباً.. فتوقفت عما كتبت أكتبه وأنشئت للحسون:

« إبت ونابم بهالقص بتحمل بغابة من شجر وغصون وغير بالحلم ما بتعشق الغابي

إنت وأنا طيرين يا حسون
أحلامنا بتضل كذاب
لو ما بغني ما كنت بنحب
وانت صورة مزغبة عني
لو كان صوتك مش هبه من الرب وكل ما صدح بيخفف العني
كانوا البشر ما يبشتروك حب
وما يبسطعوك تا تضللك

تغني
توبي قماش وإنت توبك ريش
إنت وأنا بصواتنا منعيش
الله يخلي صوتك وصوتي»
يعني على الشاعر أن يمتلك حساسية فائقة تجاه أصغر الكائنات وإلا لا يكون شاعراً..

● من هو شاعر الشعب اللبناني الزجلي خلال تاريخ هذا الفن بربايك؟ - كل زمن له شاعره.. حين كان شحرور الوادي كانت له علاقة قوية بالمجتمع وكان شاعراً للناس.. اليوم حين تقراً ديوانه وأنا غير راض عن الطريقة التي خرج بها تجد أنه يعبر عن زمنه.. خليل روكز كذلك كان يعبر عن زمنه..

● أحد المآخذ اليوم على جيلكم أنكم ما عدتم تحيون الحفلات الشعبية، وتكتفون غالباً بالمطاعم التي لا يستطيع المواطن العادي أن يقصدها؟ - صحيح أننا نقيم حفلات في المطاعم، لكن هناك أيضاً الكثير من الحفلات الشعبية، وأرخص حفلات في لبنان يفترض أن تكون حفلات الزجل لكن متعدهو المطاعم يتحكمون كثيراً في الأسعار.. نحن لا نقوم بتجارة بقدر ما نحاول أن نعيش وأن نؤدي رسالتنا أيضاً.. أنا غير مدبون مثلاً لكنني لم أوفر المال.. وقد أردت أن أوقف المنبر الزجلي أخيراً لكن تدخل كثر وطالبوني بالبقاء لتدريب الصغار والجدد..

● هل تتوقع أن يستمر شعر الزجل بالبقاء أم هناك علامات على أوفوه؟ -لاحد يستطيع التنبؤ لكنني أعرف أن الشعر الذي يعيش ٥٠٠ سنة لا يموت.. ومع ذلك أخشى أن وسائل الإعلام اليوم تقتل الفنون، فهي تزج للشعراء الصغار بطريقة غير معقولة، وهذا يحرقهم باكراً.. قديماً كان الشعراء يؤسسون طريقهم خطوة خطوة.. اليوم لا يستطيع الأولاد امتحان هذا الفن.. أنا لم أعش من المنبر الزجلي بل من أسفاري الكثيرة إلى الخارج ومن المآتم والأفراح أما المنبر الزجلي فهو رسالة بالنسبة إلي.



● يلقي قصيدة في مجلس النواب - مليون - أستراليا

والأرثوذكسي.. وكنا نتناقق على كل الأمكنة والمناطق وكان الجمهور يصفق للجميع.. ما نتفخر فيه أن الوحدة الوطنية ظلت باقية في شعرنا حتى في أفسس المراحل وأكثرها تمرقاً..

● على الرغم من ذلك بقي الزجل بحسب كثيرين خارج الوجدان الوطني بمعنى أنه لم يساهم في صوغ هذا الوجدان بقدر ما بقي في الإطار الخارجي؟

- هذا خطأ كبير.. وإلا لماذا يعتبر الزجل أهم عنصر يربط اللبنانيين بالوطن الأم.. أنا أسافر إلى أرجاء العالم وأجد أشرطة الزجل وكتبه منتشرة في كل مكان، وقد كان له الفضل في إعادة عدد كبير من المغتربين.. في أيام الفتنة كنا الداعين إلى الوحدة.. ثم خذ كل ما كتبت من مقالات عن مجزرة «قانا» مثلاً فهي لا تتساوي رباعية واحدة كتبتها عننا. أقول:

يا أولبريات لا تحقرُوا الإنسان
انتبهوا من عشية بتبنت بلبنان
بندخل عليها الزفت بالأطنان
ولما يسيري بدمها نيسان

كان الخطيب المعروف لويس أبو شرف يقول أن الذي يريد أن يتكلم على المنبر قبل شاعر الزجل أو بعده يحترق...

دور ومسؤولية

● ترى إذاً أن شعراء الزجل يؤدون واجباتهم على أفضل نحو؟

- أوجه طلباً إلى الجميع ألا يتسرعوا في تعميم الأحكام.. كل الفنون فيها سباقون ولا حقون.. لماذا إذا كان المطرب فاشلاً يقولون هذا المطرب فاشل ولا يقولون الطرب فاشل وإذا طلعت جوقة أولاد فاشلة يعم الأمر على الزجل كله.. الزجل عمره مئات السنين ونحن نحارب من أجل بقائه لأن الزجل اللبناني لا يمثل له في سائر البلدان العربية.. ذات مرة قال لي شاعر إماراتي إن دولته تمنحه جوائز سفر دبلوماسياً لأنه يمثل صورة بلاده فما الذي نفعله دولتنا لنا.. في الخارج هناك تقدير كبير لنا ما في بلدنا حقناً مضموم..

● ألا تعتقد أن شعراء الزجل سامموها في تدهور أحوالها؟

- لا أحد لا يخطئ في الحياة.. مشكلة شعراء الزجل أنهم لا يناصر بعضهم بعضاً.. كلمة الأنا هي الأكبر وهذا خطأ فادح.. كل واحد منهم يقول أنا أعظم شاعر في الدنيا.. حاولنا أن نجتمعهم لكن هناك علة أن كل واحد منهم يريد أن

عصفور بالقفص

وأول ما فاح العطر وتكشّف البلّور وقطعه وقطعه الحراير عكّ انشالو بلشّ يروح ويجي ويتحرّقص ومغهور بدوّ يدوق الحلو ومش قادر يطالو	مَرّة.. سحرني الهوى بقلب القفص عصفور وهديو لأبوس... وما كان القصد كرمالو كرمال عيتك.. إذا بدك أغاني طيور يسمر يغني لكي وتغني عامّالو	وما لدقّتي الذهب عاشراشيف المقصور وصارو طيور التلج.. يتعجّجو قبالو تشرّدق بدمعو.. وضل بجانحو المكسور يشبّق بباك القفص حتى قتل حالو	مجانين يا ريت.. انتي وأنا منتحّول مجانين وشهرب عا غربه... ومعني سننتين خليكي ونسكن بغرفه... براديهما من الياسمين وأفرش درجها ورد.. وعليه مشبّكي وبالشبوب.. هؤي لك بجوانح حساسين وبالبرد خلي جمر قلبي يدفّكي
--	---	---	---



● على المنبر مع خليل روكز (الى يمينه)